

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 6 (2009) : 113 - 129
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

التأريخ والموسوعية عند علماء الإباضية
-الوارجلاني والمصعبي والقطب أطفيش أنموذجا-

يحي بن بهون حاج امحمد
قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

توطئة:

لقد أضحى علم التاريخ في العصر الحديث يحتل مكانة عالية بين العلوم، بل ويأتي في الصدارة بين العلوم من حيث الاهتمام به وبمؤلفاته، حتى ار يطلق على العصر الحديث "عصر التاريخ"، وإلى ما قبل الحرب العالمية الأولى كانت المؤلفات في التاريخ وما يتصل به من تراجم وقصص تاريخي وآثار وغيرها من فروع المعرفة التأريخية، تُكوِّن خُمس المكتبة العالمية.

إنَّ هذا الاهتمام بالتاريخ لم يأت من فراغ، فالإنسان عبر تاريخه الطويل مرتبط أشد الارتباط بجذور تاريخية في كل جوانب حياته المختلفة، وما المرحلة التي يعيشها إلا إحدى حلقات السلسلة التاريخية التي ترتبط بسلسلة تاريخية طويلة وعميقة الجذور، فالإنسان تاريخي بجوهره وطبعه، ذلك أن وعي الإنسان التأريخي يبدأ منذ إدراكه لنفسه وشعوره بإنسانيته وبإحساسه لما له في ماضيه من ر يد تاريخي.

أما بالنسبة لعلماء المسلمين فإنه لا شك أن نظرة أولئك المؤرخين للتاريخ وأهميته، قد استمدوها من المنظور الفكري القرآني للتاريخ، الذي سرد في كثير من آياته أخباراً عن الأمم السابقة ومصائرها من منطلق أخلاقي حضاري، يتمثل بعلاقة تلك الأقوام مع الرُّسل المرسلين من قِبلِ الله إليهم لهدايتهم إلى طريق الحق والرشاد، وقد سجل لنا القرآن الكريم بعض تلك الأخبار والمصائر لتكون الحة لأخذ العظات والعِبر، منها قوله تعالى: [لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ][1]، وقوله: [أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ][2].

لقد كان لتلك الإشارات القرآنية الأثر الكبير في إثارة الوعي التأريخي عند المسلمين فاتجهوا نحو الكتابة في التاريخ في جميع جوانبه الإنسانية، فبلغت المؤلفات التأريخية نسبة تفوق بكثير المؤلفات في العلوم الأخرى.

وقد امتاز العلماء المسلمون الذين أسهموا بفكرهم في تشييد الحضارة الإسلامية بخا ية فريدة وهي خا ية الموسوعية، فلم يكن الواحد منهم عالما متخصصا في فن واحد أو في فرع واحد من فروع العلم والمعرفة بل كان موسوعيا يعرف معظم ما انتهى إليه العلم في معظم التخصصات.

مصداقًا لقوله الله تعالى: ﴿إقرأ وربُّك الأكرم﴾ وقوله أيضًا: ﴿وقل رب زدني علماً﴾ فكانت كل العلوم نافعة لابد من طلبها والتفرغ لها، وقد اجتهد معظم المشايخ من سلفنا الصالح في طلب العلم والدعوة إليه، فتكونت منهم كوكبة من العلماء الموسوعيون الذين علّموا العالم.

1– الوارجلاني:

وهو أحد علمائنا الجزائريين من السلف الصالح إنه الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني[(1)] (**500– 570**ه / **1100 – 1175**م)، الذي كان مثالاً في النبوغ والموسوعية ولم يترك فنًّا من الفنون إلاَّ وألَّف فيه، ومما يروى عن حياة الشيخ ما يأتي: ذكر الدَّرجيني[(2)] في طبقاته، قال: "..هو بحر العلم الزّاخر المسخّر للنّفع فترى الفلك فيه مواخر، الرّفيع القدر والهمّة، الجامع لفضائل كلّ أمّة، المحتوي على علوم جمّة،... إذ كان له في كل

جوّ متنفّس، ومن كلّ نارٍ مقتبس، وهذا الشّيخ (أي الوارجلاني) له يد في علم القرآن، وفي علم اللّسان، وفي الحديث والأخبار، وفي رواية السّير والآثار، وعلم النظر والكلام، والعلوم

الشرعية عباداتها والأحكام، وعلم فرائض المواريث، ومعرفة رجال الأحاديث، ولم يخل من إطلاع على علوم الأقدمين، بل حصل مع ملازمة السُّنة قطعة من علم الحكماء المُنجّمين..."[3] ، إلى أن قال: "..ذكروا عنه أنه أقام سبعة أعوام ملازمًا داره لا ينصرف، فكان متى زاره أحد من الزوار وجده إمَّا ينسخ وإما يدرسُ، وإما يقابل وإما يبرئ الأقلام، وإما يطبخ الحبر وإما يسفِّر كتابًا، لا يعدل عن هذا الفن إلى ما سواه إلا إن قام لأداء فريضة"، وقد اشتغل مع هذا بنسخ بعض مؤلفاته الجليلة بنفسه، حيث ذكر الدَّرجيني أيضا قال: "..ولقد حدثنا بعض الثقاة قال: وقفت ببلاد قسطيلية[4] وسُوف وأريغ[5] ووارجلان على سبع نسخ أو ثمان من كتاب العدل والإنصاف تأليف أبي يعقوب كلها بخط يده، وأمَّا أنا _أي الدَّرجيني_ فرأيت منها ثلاثًا"[6].

وقد ألَّف الوارجلاني من التصانيف الشيء الكثير لولا أنَّ يد الزمن قد عبثت به فضاع معظمه، ومن جملة ما يهمُّ موضوعنا كتابه "الدليل والبرهان لأهل العقول" ومعظمه في أ ول الدين وعلم الكلام، ولو أنه في الأ ل يعدُّ موسوعة مصغرة لمختلف الفنون من كلام وتاريخ وفلسفة ومنطق ورياضيات وعلوم وأخبار... ويقع في ثلاثة أجزاء.

وقد ألَّف الوارجلاني في معظم العلوم النّقلية والعقلية، فخلّف مؤلفات هي في الأ ل موسوعات علمية، ومما يحكى عنه أيضا من طرائف حرص أهل بلده وارجلان على الانتفاع بعلمه واغتنام فرص اللقاء به أنه: " كان إذا جاء إلى موضع الوضوء في مسجد وارجلان، انصرف كل من حول المتوضئ، فيضعُ سِفرًا ومفتاحًا ويضع عمامته وكساءه، ويقعد في ثوب واحد فيدخل المطهرة، فيرجعون ويأخذ أحدهم شيئًا منها ويأخذ الآخر شيئًا آخر، حتى يرجع الشيخ فلا يجد شيئًا فيقول ردوا عليَّ علائِقِي، فيقول أحدهُم أردُّ بِعِوَضٍ، فيسأل عن مسألةٍ في النحو ثم يجيب فيردُّ ما أخذ، ثم يسأل الآخر عن فريضة ويسأل الآخر عن مسألة فقهية ويسأل الآخر عن تأويل آية، ويسأل الآخر عن تأويل رُؤيا وعن غير ذلك، فيُجيب كلَّهم فحينئذ يردون عليه ما أخذوا، فكان هذا دأبه حتى لقي الله"[7].

أمَّا التاريخ في مؤلفات الوارجلاني فيتجلى في كتابه "فتوح المغرب في تاريخ بلاد المغرب" وهو كتاب ما يزال مفقودًا، ذكرت بعض المصادر[8] أن هناك أجزاء منه موجودة في بعض خزائن ألمانيا، وكذا "سير محبوب بن الرّحيل في تاريخ الإباضية بالمشرق" وهو شرح يظل مفقودًا أيضًا إلى اليوم، وما بقي مما يدل على اهتمام هذا العالم الجليل بالتأريخ هو ما سجله

من الملاحظات المهمة في رحلاته المختلفة إلى الأندلس والحجاز والسودان، ومنها ملاحظاته التي أثبتها في آخر كتابه "الدليل والبرهان" حول ما رآه في رحلته إلى السودان، والبلاد التي زارها في رحلاته تلك، فذكر كل ما شاهده من تنوع في المناخ وفي طبائع السكان، وقد ذكر أنه و لل إلى قريب من خط الاستواء كما يقول عن نفسه: "...وقد و لمت بنفسي إلى قريب من خط الاستواء وليس بيني وبينه إلا مسيرة شهر، وكاد أن يستوي فيه الليل والنهار أبدا، وإنما و لمت إلى قريب منه وأطول يوم السنة إنما يفضل أقصر يوم منه بساعة واحدة، والنهار الطويل ثلاثة عشر ساعة، والنهار القصير إحدى عشر ساعة ولياليها كذلك..."[9]

إنَّ الحس التاريخي الموسوعي الذي كان يتميز به الوارجلاني هو الذي مكنه من أن يترك لنا هذه الآثار المتنوعة، ويسجل لنا تلك الملاحظات المختلفة التي بها عرفنا أنه سبق الأوربيين إلى معرفة خط الاستواء، وتسجيل ظواهره المناخية المتنوعة، وطبائع سكانه المختلفة.

كما أنَّ المكانة العلمية التي انتهى إليها الوارجلاني قد أهلته كذلك لأن يكون علمًا في الفنون التي كتب فيها، و ار مَن بَعده من المشائخ يحذون حذوه ويعلقون على كتبه ويشرحونها، وبالتالي جاء معظمهم موسوعيين مثله، ولعلي أعني ما و لمت إليه من خلال بحثي في هذا الموضوع، علماء من أمثال الشيخ إبراهيم بن بِحمان الثّميني المصعبي وكذا الشيخ "ضياء الدين" عبد العزيز الثميني[10] ولنأخذ مثالاً هذا الأخير _أعني ضياء الدين_ فإن أ ول كتابه الشهير بـ"كتاب النيل وشفاء العليل"، تعود إلى سبعة كتب، منها: "أ ول الأرضين"، و"السيرة في الدماء والجراحات"، والجامع المعروف بـ"أبي مسألة"، و"تبيين أفعال العباد"، وهي كلها للشيخ أبي العباس أحمد بن مُحَّد بن بكر الفرسطائي[11]، وإن شئت قل هي جزء منها على الأقل[12]، وبعضها وضع له حواشٍ وعُلِّق عليه، نظرًا لأهميته العلمية والمعرفية.

2– المصعبي: أمَّا الأنموذج الثاني من العلماء الموسوعيين المحدثين الشيخ إبراهيم بن

بِحمان الثميني اليسجني المصعبي (ت:1232هـ/1817م)، هذا العالم المغمور الذي عاش ببني يسجن، وأخذ العلم عن خاله الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني، وعن الشيخ أبو زكرياء يحي بن الح الأفضلي[13] الشهير بالشيخ "عمِّي يحي"، اشتغل كاتبا لتقارير ومراسلات الهيئة العليا لمجالس عزَّابة وادي ميزاب والمسمى "مجلس عمّي سعيد"، ومن جملة ما عُرف عنه مراسلاته إلى داي الجزائر "حسن باشا الدُّولاتلِي" في قضية " الح باي" مع تجار قسنطينة من المزابيين، وقد حققناها وعلقنا عليها حين حققنا الديوان الشعري لهذا العالم الفذ والموسوم بـ "ديوان ابن

بِحمان"[14].

إن ما يملك الإعجاب شخصية الشّيخ إبراهيم بن بِحمان، هو تفرغه لسنين طويلة لطلب العلم وخدمة المجتمع، والسعي في تحصيل العلم ونشره، كما لا تفتر همته عن توعية المجتمع وإرشاده وإ لاحه.

وقد شدّتني إليه همّته العالية رغم توالي النّكبات عليه وعلى مشائخه، لتفشي الجهل وتخلف المجتمع وقتئذ[15]، فتراه يراسل هذا ويجيب على أسئلة هؤلاء، ويعلق على الكتب ويحشّيها، ويفسّر القرآن، ويشرح الأحاديث، ويرحل بعزيمة المؤمن الصّادق إلى أداء مناسك الحجّ بعد أن يضع في ذلك كتابا قيّمًا يُبيّن فيه آدابه ومقا ده[16]...، لقد ملكت إعجابي هذه الشّخصية التي لم تتقيّد بحدود تخصص ضيّق أو معيَّن، وإني أحسبه من خلال دراستي المتأنية لآثاره متأثّرًا في منهجه في التأليف بالوارجلاني الشيخ أبي يعقوب يوسف، حيث علّق على كتابه النفيس "الدّليل والبرهان" في بعض مخطوطاته، ووضع حاشية عليه[17]...

لذلك فإنّ الموسوعية والتنوّع الذي تميّز بهما الشّيخ ابن بِحمان فيها تأثّر كبير بشخصية الوارجلاني، حتى إنَّ رحلته الحجازية هي في الأ ل حذو للقصيدة الحجازية الشهيرة للوارجلاني، والدليل على ذلك هو تضمينه للكثير من أبياتها وقد تزيد عن عشر أبيات متصلة بكاملها ببعضها البعض.

لقد كان لابن بِحمان هو الآخر يد في علم التّفسير، وفي الشّروح والأجوبة، والتعاليق، والمراسلات، ثم المديح النّبوي ممثّلا في بردة على منوال بُردة البو يري، والرّحلة، وعلم المنطق، وأ ول الفقه، وفي الرّدود، وحتى المراسلات شعرًا ونثرًا...

ولعلّ تنوّع مظاهر النّبوغ فيه، رسّخ جدوى جعل العلم في خدمة واقع الحياة، إذ إنّ من حسن حظّ المكتبة الجزائرية أن حفظت لنا يد الزّمن مجموع مؤلّفات الشّيخ إبراهيم بن بِحمان _على ما و ل إلينا_ والتي بين أيدينا اليوم، لتكون شاهدا على فترة تاريخية مهمّة من حكم الأتراك بالجزائر، والتي تبقى مغمورة في كثير من أجزائها، ويشاء الله أن يوجد بصحراء الجزائر من يسجّل بعض وقائعها بعيدا عن الكتّاب المقرّبين إلى الدّايات والبايات، ممّن يتزلّفون بشعرهم ويكتبون سير الحُكّام على ما فيها، تقرّبا أو تطوّعا..ليبقى قلمُ الشيخ إبراهيم ابن

بِحمان جزائريا محضًا نزيهًا ومنتقدًا، فقد آثر هذا العالم الفذ أن يدافع عن أبناء وطنه من التجار أمام أطماع البَاي المتزايدة ورفعه للغرامات، فاشتكاه إلى الدَّاي بقلمه على لسانهم، فأنصفهم لما عرف أنهم أ حاب حق مظلومين، والعجيب أنه لم يسجل أحد هذه الآثار ولم يحفظهما في الدفاتر إلاَّ هذا العالم بخطه، حفظًا لها من التلف و ونًا لها من الضياع...

أمَّا مؤلفات الشيخ إبراهيم بن بِحمان فهي تزيد عن عشرين مؤلفًا تفنن الشيخ في وضعها وأبدع في منهجيتها، إذ يمكن اعتبارها دراسات مبسطة ومحاولة مقاربة وتوضيح لبعض الفنون النَّقلية والعقلية آنذاك، نظرًا لتراجع العلم وأهله في تلك الفترة بالذات في مزاب وما حولها، ولا يزال معظمها مخطوطًا ينتظر الدراسة والتحقيق.

ولعل الأعجب في كل هذا هو أنه لم يكن للشّيخ ابن بحمان طلبة يُملي عليهم، أو كتّابًا يشتغلون بنسخ مخطوطاته رغم معا رته للعديد منهم وازدهار حركة النّسخ في وقته بشكل كبير، فقد كتب الشّيخ كلّ كتبه بخطّه، ووقّعها بنفسه كذلك، إلاّ ما ار متداولا بعده بكثرة كبُردَتِهِ البديعة التي تحوي منها خزائن المخطوطات بمزاب نسخًا عديدة، نظرًا لطابعها الديني، ولاحتفاء المسلمين بسيرة الرسول مُحَمَّد(ص)، وهو ما يمكن اعتباره دليلا على رقي لغته وذيوع يته في عصره ومصره، ليبقى جهد هذا العالم الفذ بارزًا في نقل مجموعة من العلوم وحر ها على عدم تضييع الأمانات التي سيستلمها الأجيال من بعده كما ستلاحظ.

3– الشيخ أطفيَّش:

هو الشيخ امُحَمَّد بن يوسف أطفيَّش الشهير ب"قطب الأئمة"، (و: 1236هـ/ 1820م – ت: 23 ربيع الثاني 1332هـ/ مارس 1914م) أشهر عالم إباضيٍّ بالمغرب الإسلامي في العصور الحديثة، من عائلة شهيرة بالعلماء من بني يسجن، غرداية، الجزائر، وينتهي نسبه إلى أبي حفص عمر بن الخطاب τ، يقول عنه تلميذه الشيخ إبراهيم أبو اليقظان في ملحق السير: "منهم الشيخ الحاج امُحَمَّد بن يوسف أطفيَّش الشهير بقُطب الأئمة عند المغاربة، وبقطب المغرب عند المشارقة وهو جدير بحق بهذا اللقب العظيم، فإن علماء المشرق والمغرب كالكواكب تدور على هذا القطب في فلكه الواسع، ويتصل نسبه بسيدنا عمر بن الخطاب τ فهو من بني عدي"[18].

أمَّا لقب "قُطب الأئمة" فقد أطلقه عليه الشيخ عبد الله بن حميد السَّالمي[19] _مجدد

العلم بعُمان_ فاشتهر به حتى ار علمًا عليه.

نشأ الشيخ أطفيَّش عصاميًّا مُعتمدًا على نفسه في طلب العلوم فلم يسافر لتحصيلها بل جعل دأبَهُ الحرص الشديد على اقتناء الكتب واستنساخها لنفسه، مجتهدًا في طلبها من كلِّ البُلدان، رغم ضيقِ ذات اليد وبُعدِ المسافات، وقد أقبل على المكتبات يلتهم كنوز المعرفة من بطونها...

لم يكد القُطب أطفيَّش يبلغ السادسة عشرة من عُمره حتى جلس للتدريس والتأليف، ولمَّا بلغ العشرين ار عالم وادي مزاب، ثم في كهولته بلغ درجة الاجتهاد، كما يذكر ذلك بنفسه في كتابه شامل الأ ل والفرع، ولا أدل على ذلك من نبوغه النحوي، بحيث استطاع أن ينظم كتاب المغني لابن هشام في خمسة آلاف (**5000**) بيت وعمره لا يزيد على ستة عشرة (**16**) سنة.

توفي القُطب أطفيَّش _رحمه الله_ بعد عمر طويل قضَّاه في الطاعات، وقد شهد له جميع من عرفوه من العلماء الأعلام بالرسوخ في العلم، توفِّي بمرضٍ دام أسبوعًا ولم يمرض من قبله بمرض معجزٍ، بعد أن قضى قرابة القرن في الجهاد العِلمِي والإ لاح الاجتماعي، عن عُمرٍ يناهز **96** سنة.

وتذكر بعض المصادر أنه كان من السبعة المقتولين بالسم في الجزائر سنة **1914**م، إذ وضع له أحد العُملاء الفرنسيين سُمًّا في حذاءه تسبب في وفاته بعد أسبوع[20]، وذلك لأن فرنسا كانت تخشى إن هي ذهبت للقتال في الخارج أن ينظّم هؤلاء الأفذاذ ثورة لها في الداخل.

تخرج على يديه عشرات من التلاميذ، أ بحوا فيما بعد من أبرز العلماء وأجل الشخصيات المجاهدة والداعية، وقد انبثُّوا في معظم أقطار المغرب والعالم الإسلامي، من مزاب وجِربة ونفوسة وعُمان، أشهرهم: سليمان باشا الباروني الليبي النفوسي[21]، وسعيد بن تعاريت الجربي[22]، وإبراهيم أبو اليقظان، وأبو إسحاق إبراهيم أطفيَّش الجزائري، وبابكر بن الحاج مسعود[23]، و الح بن عمر لعلي[24]، و الح بن يحيى بن الحاج سليمان آل الشيخ، وأحمد بن الحاج إبراهيم حميد أوجانة، والحاج عمر بن حمو بكلي[25]، والحاج نا ر بن إبراهيم الداغور، ومُحَمَّد بن الح بن يحي الثميني، والحاج عمر بن يحيى[26]، ويحي بن الح باعمارة[27]،

وإبراهيم بن بنوح مطياز[28]، و ـالح بن الحاج محمَّد الداودي، وغيرهم..

يعتمد منهج القطب في التدريس على استغلال الوقت والتركيز على التلقين، بحيث تستمرُّ دروسه طيلة أيام الأسبوع من الضحى إلى الزوال إلاَّ يوم الجمعة، ثم يزيد دروسًا في المساء بعد العصر.

لا يدرِّس القُطب في الليل إلاَّ الغُرباء والنجباء والمتفوقين، لأنه كان في العادة يخصص الليل للتأليف والإجابة عن الرسائل والاستفتاءات وغيرها، وكان مع ذلك متفانيًا في التعليم فقد تصل دروسه إلى أزيد من عشر دروس مختلفة التخصصات في اليوم الواحد.

أ- مكانته العلمية:

لقد سطع نجم القُطب أطفيَّش مبكِّرًا في سماء مزاب والجزائر والعالم الإسلامي، وساهم بذكائه وحسِّه الإسلامي المرهف في تحسيس المسلمين بأهمية العلم وضرورته، وكذا بخطورة الاستعمار وسياسته في تجهيل الشعوب وجعلها تابعة له، فعرف المنصفون مكانته العلمية فقدَّروها حقَّ قدرها، وتسارعوا إلى لقائه وإرسال وفود الطلبة إليه، حاملين معهم الهدايا والكتب القيمة من سادتهم ووجهائهم.

فقد أهدى إليه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني نيشانًا عندما حل لغز الماء، في مسابقة وقعت بين معا ـريه من العلماء، فقال رجال الأكاديمية الفرنسية: "نحن أحق وأولى من تركيا في تكريم القُطب أطفيَّش"، فأعطوا له وسام الاستحقاق: "لاَبَالْمْ أَكَادِيمِيكْ" **(la palm académique)**.

وقد كانت للقطب مع سعة مداركه مراسلات إلى أبعد الآفاق الإسلامية، فله رسائل مع سلطان زنجبار "بُرغش" الذي كان يدفع له منحة شهرية ويشارك في حركة النهضة بطبع المؤلفات الإباضية، كما كانت له مراسلات كثيرة مع أعلام الفكر الإسلامي لاسيما أهل عُمان إذ تلقى سنة 1298هـ/1881م نسخة من "بيان الشَّرع" لمحمد بن إبراهيم الكِندي العُماني، وهذه الموسوعة تحتوي على 71 مجلداً، وأخرى من "قاموس الشريعة" لجميل بن خميس السّعدي التي تحتوي على 92 مجلداً.

ومن هنا فإن جلَّ العلماء الذين عرفوه قد شهدوا له بالتفقه والاجتهاد، وهذا الأخير قد ظهر جليًّا في شرحه لمتن كتاب النيل للعلامة عبد العزيز الثميني، وعلى أية حال

فإن كتاب "شرح النيل وشفاء العليل" يعد موسوعة فقهية، فالقطب ـرحمه اللهـ قد عالج فيه كل القضايا الفقهية بنظرة إسلامية تقوم على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وآراء المذاهب الإسلامية جلها، هذا وإن القطب لا يأخذ الآراء الفقهية إلاّ بعد نقدها وغربلتها حتى يحكم لها أو عليها ولو كان هذا الرأي من مذهبه، وفي هذا يقول الأستاذ يحي بكوش: "إن القطب بحكم مطالعته الكثيرة، إذا وجد بعد ذلك في المسألة ذاتها رأياً لإمام أو شواهد تؤيد موقفه في كتاب ولو كان مخالفه في المذهب لا يتردد في توجيه الحمد لله تعالى على توفيقه إليها".

أما بالنسبة لمنهجه في شرح كتاب النيل فإنه يورد النص الأ لمي من الكتاب فيشرح الكلمات الغامضة ويعربها في بعض الحالات ويزيل إبهامها، وبعد ذلك يقدم الأدلة الشرعية والنّقلية، ويقيم المسألة من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأراء المذاهب الإسلامية.

إن شرح "كتاب النيل" يوازي الأمهات الفقهية الكبرى، بحيث أعطى دفعةً جديدة للمذهب الإباضي خا ة، والفقه الإسلامي في عصرنا هذا، ومن هنا قيل إن شرح النيل وشفاء العليل، هو موسوعة فقهية كبرى تقف جنباً إلى جنب مع الموسوعات المذهبية الأخرى الذي تتجه إليها أنظار العلماء والباحثين من جميع البلدان.

ب– مؤلفاته: لقد بلغ عدد مؤلفات القُطب أكثر من مائة مؤلف في شتى العلوم: الأخلاق، والأ ول، والبلاغة، والتفسير، والتجويد، والتوحيد، والتاريخ، والحديث، والحساب، والرسم، والسير، والطب، والصرف، والفقه، والعروض، والفلك، والفلاحة، والفرائض، والفلسفة، واللغة، ومصطلح الحديث، والمنطق، والنحو، والمراسلات المختلفة[29]...

ج– محاربته للاستعمار الفرنسي:

إن الشيخ أطفيَّش رحمه الله يمثل الجبهة الصلبة المعارضة لفرنسا عند و ولها إلى وادي مزاب، وكان يدعو إلى الجهاد وعدم التعامل معها مادياً وعسكرياً، وحتى تجارياً، وهكذا فإن الجنرال الفرنسي "دُولاَتُور" قد سجنه في نوفمبر 1882م عند و وله إلى وادي مزاب بأمر من الوالي العام الجزائري ليُقنع العزَّابة بعدم جدوى وفاعلية مقاومتهم لإلحاق مزاب بالاحتلال الفرنسي، ناسين أو متناسين أن القُطب يعتقد جازمًا أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، مردِّدًا

هذه العبارة الأخيرة في كلِّ مرة معتزًّا بالإسلام أيما اعتزاز.

ومن طريف ما يروى عن القُطب أن وفداً فرنسيًّا زاره في الدار التي يدرس فيها وذلك قصد تسليمه وسام الاستحقاق عن حله لُغز الماء الذي حيَّر العلماء، وكان ضمن هذا الوفد القائد العسكري العام الفرنسي في الجزائر ومجموعة من الضباط الفرنسيين والقساوسة، وحينما دخلوا عليه الدار وجدوه جالساً يدرّس طلاَّبه، ولما وقفوا أمامه قام القُطب واعتلى بعض الدُّرُج، فطلب منه حاكم التراب أن ينزل ليسلمه رئيس الوفد النَّيشان، فأجابه القُطب قائلاً: "الإسلام يعلو ولا يعلى عليه"، وعندما دنا منه أحد الجنود ليعلق له الوسام على صدره أرخى له القطب طرف بُرنُسِهِ من الأسفل وقال له علِّقه هنا..

وكان يستدعى مرَّات إلى التحقيق بسبب تجرؤه المستمر على السلطات الاستعمارية في بلدته وسائر قرى مزاب، حتى إنه فُتِّش وسُئل مرَّات عن وضعه الطابع البريدي مقلوبًا إلى الأسفل على أظرفة البريد، وقد يبدو للبعض بأن هذا السلوك الأخير تصرف ساذج، إلاَّ أنه في حقيقة الأمر شكل من أشكال الرفض الصريح والمتواصل لكل أشكال تواجد المستعمر.

د– رحلاته وأسفاره:

لما ذاع صيتُ القُطب تهافت الطلبة عليه من كل مكان، وطلب الملوك والأمراء لقائه كذلك، فأرسل له الكثير منهم يطلبون تشريفه بزيارة بلدانهم.

إلاَّ أنَّ اشتغاله المستمر والمتواصل بالتربية والتعليم أخذا جُلَّ وقته، فاستعاض عن الرحلات إلى الأمصار البعيدة بالمراسلات المختلفة إلى أولئك الملوك والوجهاء والأعيان، فمن خارج الجزائر راسل شخصيات من البحرين والحجاز، وعُمان ومصر وتونس وجبل نفوسة، والقُسطنطينية وبعض العواصم الأوروبية، ولو جمعت تلك المراسلات لكونت مجلدات ضخمة فيها من أنواع المعارف والأخبار التاريخية فوائد كثيرة مهمة.

مع ذلك فهو يزور مدن وادي مزاب باستمرار لإلقاء الدروس والفتوى، مثل عادة زيارته لمدينة بريان التي غالبًا ما تكون مرَّتين في السنة في الربيع والخريف، وهذا لإلقاء الدروس والوعظ والإفتاء،.. كما زار مدينة القرارة مرارًا.

ويعود سبب قلة رحلات القُطب كما أسلفت إلى أوضاعه الشخصية، كاشتغاله

منذ سنٍ مبكرة بالتدريس الذي تطور من حلقات إلى طبقات، وما يتطلبه ذلك من التفرُّغ والتحضير الجيِّد، أضف إلى ذلك سياسة التضييق الممارسة عليه من طرف المستعمر الفرنسي وأذنابه والتي عانى كثيراً من ويلاتها القُطب وطلبته، ولعل من أحقرها إجبارية طلب رُخص التنقل بين قرى مزاب وخارجها.

هـ- رحلاته الحجازية:

تُجمع كل المصادر التي بين أيدينا اليوم على أن القُطب أطفيَّش قد حجَّ مرَّتين في حياته، أمَّا الأولى فقد كانت حوالي سنة 1290هـ/1873م وهي التي يتردد ذكرها كثيراً في مؤلفاته، وقد مكث في مكة مجاورًا سنة كاملة، درَّس خلال وجوده هناك كتاب: "السنوسية في عقائد المالكية"، وإن كان شرح هذا الكتاب من طرف القُطب لم يصل إلينا بعد، ثم دَوَّنَ في تلك الرحلة معظم ملاحظاته ولقاءاته مع الشخصيات والعلماء، وألَّف فيها كتابه الشهير في المنطق وهو: "إيضاح المنطق في بلاد المشرق"، وقد كتب القُطب العلاّمة على وجه الورقة الأولى ما يأتي: "إيضاح المنطق في بلاد المشرق، ألَّفتُهُ في مكة، ولعلماء مكة تطاول إليه، وذلك في عهد الشيوخ الشافعيين دَحلاَن ومُحَّد حَسِبيَ الله[30] ورَحمَة[31]، والشيوخ الحنفيين عجمًا وعربًا، فمن العجم التركيين الشيخ مُحَّد حقي بن علي بن إبراهيم[32] مؤلف "حزب الأبرار وحصن الأخيار" وغير ذلك، وكلهم محبُّون لي ولأموري"؛ وقد أعار القُطب هذا الكتاب لملك زنجبار سعيد بن علي الصقري وهذا بعد عودته من الحج ليقوم بطبعه على نفقته الخا ة، وهو ما ورد في عبارة غيرة على جانب الورقة الأولى نفسها بخط القُطب نفسه وهي: "إلى الشيخ سعيد بن علي الصقري يطبعه ويردّه إلى مؤلفه امحَّد بن الحاج يوسف مع نُسخة من مطبعة، لأنه لما يُنسخ".

أما رحلته الحجازية الثانية فقد كانت سنة 1303هـ/1886م وقد نظم خلالها "قصيدته الحجازية" وذكر فيها مسلك رحلته تلك إلى الحجاز ذهابًا وإيابًا، وأهم المدن التي نزل بها، والناس الذين اجتمع بهم في كلِّ مرحلة، وقد عاد منها مع بداية سنة 1304هـ/1887م. وقد سجل لنا التاريخ بعض العلاقات التي أثمرت وخلقت أجواء مفعمة بالنشاط ووطدت العلاقات بين العلماء فلم يكتفوا بالتوا ل بينهم فقط بل نقلوا ذلك إلى طلابهم ومريديهم، وفتحوا مجالات جديدة في يد العلوم بإنشائهم ما يُعرف بـ"البعثات العلمية"[33]، فقامت بعض الأنظمة بإشارة من علمائها بفتح معاهد تقوم برعاية شؤون الطلبة

الوافدين إليهم للانتهال من معين علمائهم، ومن تلك البلدان التي أقام بها الطلبة الجزائريون على سبيل المثال: مصر حيث جامع الأزهر العامر، وتونس الخضراء حيث جامع الزيتونة، والحجاز حيث الحرم المكي والمدني.

و- مؤلفاته في علم التاريخ:

- رسالة موسعة في تاريخ وادي ميزاب، مخ.
- الرسالة الشافية في بعض تواريخ أهل ميزاب، مط، طح.
- مسائل السير، مط، طح.
- كشف الغمة، مط، طح.
- الإمكان في ما جاز أن يكون أو كان، مط، طح.

وتوجد نسخ من كل هذه الكتب في مكتبته، "مكتبة القطب" ببني يزجن، وجميعها في علم التاريخ والتراجم والسير، وفي بعضها تفا يل عجيبة لتاريخ ميزاب والإباضية عمومًا، وينبئك ما فيها على سعة مدارك هذا الرجل في هذا الفن، وعلى تنوع مصادره فيه، حتى اعترف له العدوّ قبل الصديق وشهد له المخالف قبل الرفيق.

لقد أثمرت جهود الكثير من العلماء المصلحين المجددين على مر السنين خيرات جمَّة على بلدانهم والبلاد الإسلامية في شرقها وغربها، كما عرف العديد من الدعاة كيف ينهضون بشباب أمتهم نحو المعالي، فصنعوا منهم دعاة بدورهم مجددين ومصلحين.

مصادر الموسوعية ومنابعها:

يمكن أن نرجع مصادر هذه الموسوعية عند من ذكرنا من السلف الصالح إلى عدة أسباب نوجزها فيما يأتي:

1- الانقطاع لطلب العلم: وذلك بالإنكباب على مطالعة الكتب المفيدة، وقد عُرف عن الأسلاف _رحمهم الله_ انقطاعهم عن العامة لسنوات قصد الدراسة والتأليف، وقد مرت معنا قصة الشيخ أبي يعقوب الوارجلاني الذي لزم داره سبع سنين، ثم الشيخ أبو زكرياء يحي بن الح الأفضلي ذَكر عن نفسه أنه مكث يتعلم بجربة مدة اثنتا عشرة سنة، وكان كلما جاءته رسالة من أهله بمزاب لا يقرؤها بل يدسّها في قبو في الجدار كان قد أعده لذلك، ويغلق فتحت القبو بما لا يستطيع أن يسحب تلك الرسالة وغيرها من الرسائل حتى

وإن شعر بالوحدة واشتاق إلى الوطن، ولما عزم على الرحيل والعودة إلى ميزاب فتح ذلك القبو وأخرج ما فيه من الرسائل فإذا معظمها أخبار عن وفيات الأقارب وغيرها، فقال: "لو اطلعت على تلك الرسائل حينما كانت تصلني لما بلغت ما أنا فيه اليوم ولانقطعت عن العلم وعدت خائبا إلى وطني".

كما يروى أيضا عن الشيخ عبد العزيز الثميني أنه لزم بيته مدة خمسة عشر سنة لا يخرج إلاَّ إذا حزب الأمة أمر، وذلك بعد فتنة وقعت في المدينة[34]، وقد كان هذا الاعتزال دافعا للتفرغ للدراسة والتأليف، مثله مثل الشيخ أبي يعقوب الوارجلاني ـرحمه اللهـ الذي مرَّ معنا آنفًا.

2- حلقات العلم: وهي التي قلت مواهب الشيوخ وأهّلتهم لنيل المراتب، ففيها يصقل المتعلم مواهبه بمدارسة العلوم والآداب والفنون الأخرى، ومن خلال مناقشة الطلبة لشيوخهم وأقرانهم تتسع مداركهم وتتبلور شخصياتهم، وقد كان بعض السلف الصالح يعتمدون نظام حلقات الدرس منذ زمن أبي عبيدة τ حتى إلى عهد قريب من زمننا هذا، ومن الأمثلة الشهيرة حلقات قطب الأئمة الشيخ أطفيَّش ـرحمه اللهـ والتي كان يعقدها باحًا ومساءً، وقد تخرج على يديه جحافل الطلبة الذين أناروا الجزائر والعالم الإسلامي.

3- الرحلة في طلب العلم: ومن فوائدها العديدة بعد التحصيل العلمي المتنوع، ملاقاة العلماء واكتشاف البلدان، وتبادل المعارف، وما حصَّله جُلُّ العلماء كان معظمه من رحلاتهم المتنوعة، ولعل هذه النقطة يمكن أن نُفرِد لها محاضرة خا ة بها، نظرًا لأهميتها وكثرة الملاحظات المفيدة من حولها.

4- التعليق على الكتب: من خلال وضع ملاحظات عليها في الثنايا أي: أمام المسائل أو على الهوامش، أو في البداية أو في النهاية، وقد يكون في كتب مستقلة أو على فحات بين أوراق الكتاب يدوَّنُ فيها كل مختصر مفيد، وقد يجد المتصفح للمخطوطات أحيانًا عبارة (قف) متكررة على الهوامش، وهي تعني أنّ أحد الشيوخ كان يدرِّس به في حلقاته، وكلما انتهت الحصة يضع هو أو أحد تلاميذه هذه العبارة، كعلامة للتوقف أو ناهية الدرس لذلك اليوم...

الخلا ة:

لاشك أن الحديث في هذا الموضوع يطول، خا ة إذا تعلق الأمر بذكر سير الفضلاء والصالحين، وقد ذكرت بعض النماذج الرائدة حتى تحصل الفائدة وبالمثال يتضح الحال، فقد كان علماء الإباضية عمومًا مؤرخين وموسوعيين فنبغ الكثير منهم في علوم المعقول والمنقول، وقد تتلمذ من ذكرنا آنفًا أي القطب والمصعبي والوارجلاني على بعضهم بالواسطة، أي تتلمذ اللاحق منهم بكتب السابق وهكذا، فمتى غاب المعلم كان علمه وأثره حاضرين، يغترف منهما القريب والبعيد..، وحتى لا أستطرد أكثر فإنني أتوقف هنا، لأؤكد في الأخير بأن الأخذ بما ثَبَتَ وسَبق أعان السلف على اكتساب المعارف وذلل لهم الصعاب، فكانت همة الواحد منهم لا تفتر حتى يبعثها بولوج فن جديد من العلم، كما أن النظر في تاريخ ومآثر من سبق كان يبعث فيهم روح المثابرة والمصابرة في كل مرة..، وحسبي بهذا إن فَهِم طلبتنا هذه النقاط ووعوا كنهها فإنها ستعينهم على طلب العلم كثيرا، ومما يعين على ذلك أيضا: المطالعة المفيدة، فهي تُكسب المشتغل بها تحصيلا موسوعيا متنوعًا، خا ة إذا توفرت معها الإرادة والاهتمام، وإن باستطاعة أي فردٍ منَّا أن يحصِّلها أو يحصِّل بعضها، فما لا يدرك جله لا يترك كلُّه، والحمد لله أولا وأخيرا.

الهوامش:

1. سورة يوسف، الآية .**111**

2. سورة الروم، الآية .**09**

3. معجم أعلام الإباضية، مجموعة من الباحثين، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية غرداية، ط**1**، **1999**، ج**4**، ص**1010** وما بعدها.

4. هو أبو العباس أحمد بن سعيد الدَّرجيني (ت**670**ه)، صاحب كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، من أشهر الكتب التي أرخت لمشائخ وعلماء الإباضية بالمغرب الإسلامي، رتبه على اثنتي عشرة طبقة ومدى كل طبقة خمسين سنة، طبع في جزأين، بتحقيق الأستاذ إبراهيم طلاَّي.

5. أبو العبّاس الدَّرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاّي، دار البعث قسنطينة، ط**1**، **1970**، ج**2** ص.**491**

6. قسطيلية: الجنوب التونسي، من نواحي الجريد إلى الجنوب الشرقي من الجزائر.

7. وادي ريغ: في جنوب الجزائر، المناطق الممتدة من وارجلان إلى الحدود التونسية في الجنوب الشرقي.

8. الدرجيني، طبقات المشائخ، ج**2** ص.**492**

9. نفسه، ج**2** ص **492** وما بعدها.

10. معجم أعلام الإباضية، ج**4** ص **1013**.

11. الوارجلاني، الدليل والبرهان، تحقيق، سالم بن حمد الحارثي، وزارة التراث القومي عُمان، **1983**، ج**3** ص**216**.

12. "ضياء الدين" عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني (و: **1130**ه/ **1718**م – ت:**1223**ه/ **1808**م)، مرت عليه سلسلة نسبة الدين أيضا، صاحب كتاب النيل، أشهر موسوعة فقهية عند الإباضية. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج**1**، ص **532** وما بعدها.

13. أبو العبّاس أحمد بن مُحَّد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطائي النفوسي (ت:**504**ه/ **1111**م)، حلقة في سلسلة نسبة الدين عند الإباضية، صاحب كتاب القسمة وأصول الأرضين، من أشهر الكتب التي ألفت حول العمارة الإسلامية عند الإباضية. ينظر: نفسه، ج**1**، ص **95** وما بعدها.

14. طبقات المشائخ بالمغرب، الدَّرجيني، ج**2** ص **443**.

15. (و: **1712**– ت: **1788**م) من العلماء الأعلام وكبار المشائخ بمزاب إبّان النّهضة الحديثة، بل هو باعثها الأوّل، وضع أسس حركة إصلاحية شاملة، فعلّم وأرشد وأصلح في التّعليم والوعظ وفتح مدرسة هي في الأصل جزء من مسكنه، تحوّلت بعد ذلك إلى معهد، ومنه تخرّجت على يديه جحافل الطّلبة الذين قادوا الحركة الإصلاحية بوادي مزاب ووارجلان ووادي أريغ. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج**4**، صفحات **965**–.**968**

16. يحي بن بهون حاج امُحَّد، ديوان ابن بِحمان، دارسة وتحقيق، دار الهدى عين مليلة، ط**1**، .**2007**

17. نفسه، التقديم كله.

18. هو كتاب "مختصر المناسك ومهذّب المسالك" المنسوب خطأ إلى شخص يُدعى إبراهيم المصعبي، مخطوط، بمكتبة القُطب ببني يسجن، رقمه: .**038**

19. تعليق الشيخ ابن بِحمان على ديباجة الدّليل والبرهان، مخطوط، مكتبة الاستقامة بني يسجن، المج كلّه.

[20]. إبراهيم أبي اليقظان، ملحق السير، مخطوط، ج1.

[21]. عبد الله بن حميد السالمي (نور الدين): (1286–1332هـ) علم من أشهر علماء عُمان في العهد الحديث، له مؤلفات عديدة تعد مرجعًا في العقيدة والتوحيد منها: "مشارق الأنوار"، و"دارج الكمال" وغيرها، لقبه القُطب بـ"نور الدين"، وقد عاش السالمي 46 سنة فقط وكأنها لبركتها مائة سنة. معجم أعلام الإباضية، قسم المشرق، تأليف: د.محمد ـالح ناـر وسلطان الشيباني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2006، ص 271–273.

[22]. لم ينفرد بهذه الرواية إلاّ الشيخ حمو عيسى النوري، نقلا في رواية عن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم أطفيَّش، وهو تلميذه وابن عمّه في نفس الوقت..

ينظر: حمو عيسى النوري، نبذة من تاريخ المزابيين، ج1 ص.326

[23]. سليمان باشا الباروني: من زعماء النهضة العربية الإسلامية الحديثة بليبيا، عالم وزعيم مجاهد وأديب، (1870م/1940م)،

ينظر بتفصيل أكثر: معجم أعلام الإباضية، ج3 ص426 وما بعدها.

[24]. سعيد ابن تعاريت: من شيوخ جزيرة جربة البارزين، ـاحب "رسالة في تراجم علماء الجزيرة" (ت: 1289هـ/1872م)، ج3 ص375.

[25]. بابكر بن الحاج مسعود: (ت: 1325هـ/1907م) قاضي بالمحكمة الإباضية بغرداية، يعد من بين تلاميذ القُطب النابغين. نفسه، ج2 ص133.

[26]. ـالح بن عمر لعلي: (1870/1928م)، من أجلة علماء بني يسجن وميزاب، من أبرز تلاميذ القُطب وقد خلفه في ميدان الإـلاح والنهضة العلمية الحديثة، ينظر: نفسه، ج3 ص475 وما بعدها.

[27]. عمر بن حمو بكلي: (1837/1922م)، من أعلام بلدة العطف البارزين، ومن خيرة طلبة القُطب، وهو ـاحب آثار ومواقف تاريخية مشهودة. ينظر: نفسه، ج3 ص632 وما بعدها.

[28]. الحاج عمر بن يحي: (1858/1921م)، من أعلام القرارة وميزاب، ومن بين أنجب تلاميذ القُطب، يعتبر "معهد الحياة" امتدادا لمعهده الإـلاحي. ينظر: نفسه، ج3 ص654 وما بعدها.

[29]. يحي بن ـالح: (1867/1938م)، من مدينة مليكة بميزاب، وهو قاضيها المفوض بتعيين من شيخه القُطب، استقر في منصبه مدة 36 سنة ولم يُنقَض له فيها أيُّ حُكم. ينظر: نفسه، ج4 ص964.

[30]. إبراهيم بن بنوح مطياز: (1885/1981م) من علماء بني يسجن النابغين، من أنصار نادي الترقي التابع لجمعية العلماء، وله كتاب "تاريخ وادي ميزاب". ينظر: نفسه، ج2 ص19 وما بعدها.

[31]. مصطفى وينتن، آراء الشيخ أمحمد بن يوسف أطفيَّش العقدية، نشر جمعية التراث، القرارة، المطبعة غرداية، ط1، 1998، التقديم كله.

[32]. أحمد بن زِيني دحلان: (1232_1304هـ/1817–1886م)، فقيه مكي مؤرخ تولى الإفتاء والتدريس بمكة، وفي أيامه أنشئت أول مطبعة بمكة فطبع فيها بعض كتبه، مات بالمدينة، من تصانيفه: "الفتوحات الإسلامية". ينظر: الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط11، 1995، ج1، ص130.

. محمد حسب الله بن سليمان المكي الشافعي: (1244_1335هـ/1828_1917م)، فقيه أـولي، من آثاره: "الرياضة البديعة في أـول الدين وبعض فروع الشريعة"، وحاشية على مناسك الحج للخطيب الشربيني. ينظر: نفسه، ج6، ص.152

[33]. رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الحنفي: (ت: 1303هـ/1888م)، نزيل الحرمين، عالم بالدين والمناظرة،

جاور بمكة وتوفي بها، له كتب منها: "إظهار الحق"، جزآن، وهو من أفضل الكتب في موضوعه. ينظر: نفسه، ج**3**، ص.**18**

[34]. مُحَمَّد حقي بن علي بن إبراهيم النازلي: (**1301**هـ/**1884**م)، فاضل متصوف من علماء "آيدين" توفي بمكة، له مؤلفات عديدة منها: "السّنوحات المكية" و"تفهيم الإخوان تجويد القرآن". ينظر: نفسه، ج**6**، ص.**108**

[35]. نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، مُحَمَّد علي دبوز، المطبعة العربية الجزائر، ط**1**، **1969**، ص**148** وما بعدها.

[36]. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج**1**، ص **532** وما بعدها.